القنـاع

كم فتحت ثغري، وبدت الابتسامة على وجهي، لم أحرم أحدا منها، فالكلّ يبتسم لي ... لكن قست عليّ الأيام، وطارت الابتسامة من فمي ولم أستطع مواجهة غيري بعبوسي، فقد تتحرك شفتاي وتبتسم عيناي، لكن لا أعلم إن كانت رغما عني، ارتديت قناع يصدر ابتسامة لا أعلم أفيها نفاق أم ريّاء! لكن لا أقصد الإيذاء.

لا أدري إن كنت أسخر من غيري أم غيري يستهزأ بي، لكن في كلّ الأحوال كنت أسخر من نفسي هاته التي اكتسبت قناع باسمٍ عبوس إن جاز القول.

أحب الكتاب، نعم ما زلت على ذكرى معلمي الذي لقنني كيف أقرأه حرفا حرفا، ذلك المعلم الذي لا أدري ما فعلت به الأيام ؟ ولو استطعت لأنقذته من أنيابها، القناعة كنز لا يفنى، لكن في زمن كل شيء زادت قيمته حتى السلع.

فمعلمي أحق بكل كنز، لكن أتمم فقط أمانتك بكل نزاهة، وأنا سأحمل مع أمتعتي مأزرك المغبر بالطباشير، أو حتى محفظتك وهندامك اللذين مهما بدلتهما فلا نعرفهما إلا باللّون الأبيض، أو آخذ صورتك معي وأنت على المصطبة بشعرك الأبيض وسط عز شبابك، نعم سوف آخذ تذكارا منك حتى أظفر بدور المعلم.

أحبّ الكتاب فهو وفيّ وجدته وقت الضيق ... لكنّني سرعان ما أملُّ وينادي القناع فأميل إلى النفور منه... لا تعاتبني يا صديقي فمهما يكن لك مكانتك عندي مقدسة وربما عند غيري... لا تلمني ففي كل الأحوال أنا صادقة لولا القناع.

أرتاح مع الجريدة...كل يوم أنباء جديدة، بل سئمت تعبت من خرافات هاته الجريدة ... لا تلوميني يا سيدتي فلطالما أردت أن توعيني وبالثقافة تزوديني وبمن حولي تخبريني.

عزمت شراء كتاب، وجدت سائل أمام الباب قال لي: هلا تمهلت برهة وسمعتني، فأنا منك أسأل صدقة... حبست رجلي عن الخطى، رفعت عيني فنظرة إلى وجهه نظرة خاطفة فإذا بعيناه قد دبلتا من قهر الزمن، ويداه قد تعبتا من كثرة السؤال، ناهيك عمّا فعل الوقت بتقاسيم وجهه...غمست يدي في جيبي ونلته قطعة نقدية.

قال لي: بارك الله فيك ورزقك خيرا على ما أعطيت، مضيت ورحت أتحدث مع نفسي هل أحبّ الخير؟ هل ما فعلته عن نفسي أم أنّني رَكَّبْتُ قناعي؟

أردت أن أسعد بيتي... سأشتري حليب وبن وسكر لأمي وإخوتي ... ثغري باسم ... لكن أعماقي حزينة، بداخلي بركان خامد يغلي من البكاء الصامت، فهل يسقط القناع؟

ليث تعثر نفسي على القناع وتسير به دوما... لكن ويحك فالقناع من خِدَاعٍ فلا تلتزميه، فهلا لبست تارة هذا وتارة لبثت لحقيقتك؟